موقف الإسلام من البداوة والحضارة

الدكتور عبد الملك محمود محمد

كلية الإمام الأعظم «رحمه الله» الجامعة، الأنبار

بسم الله الرحمن الرحيم

البداوة .. الحضارة .. والإسلام

المقدمة

أكد الإسلام في منهجه ، ومبادئه أن الإنسان كائن حضاري ، خلقه جلّ وعلا وجعله خليفة في الأرض وأمره بعد أن علمه الأسماء كلها بعمارة الأرض واستثمارها بما يخدم منهجه في الحياة الدنيا التي أرادها جلّ وعلا أن تكون مرحلة أولى في قدره الإنسان ، وهو يعيده للحياة الثانية حيث جنته التي جعلها كعرض السماوات والأرض أو عقابه الأليم في نار جهنم ...

ومادام الإنسان الأول مؤمناً ، و متعلماً إذن فمعرفته بالأشياء ستجعله يستخدمها كما يستخدم الأشخاص في خدمة المبادئ والقيم التي جاء بها الإسلام ، ومنها التعلم والتفقه في الدين، لتكون أول عملية في طريق التغير الذي لابد منه لتخفيف وطأة البداوة ، والخشونة التي ألفها الناس بعد أن اضطرتهم ظروف العيش للسعي وراء مساقط الأمطار ، حيث مسارح أغنامهم وإبلهم كانت تقوم عليها حياتهم .

وحيث الاستقرار، ولا مقام أمين ، فإن فرص تعلم البدوي ضئيلة إذا ما قورنت بحياة المدينة ، وباستثناء بعض مجالس شيوخ القبائل وسادتها التي قد يكون التعليم فيها غير مقصود ، فإن حياة البادية قد خَلت من مظاهر التعلم والتعليم التي كثيراً ما تكون سبباً وجيهاً في التغير ، سلبياً أو إيجابياً والمؤسف حقاً في مثل ظروفنا أن نجد بين المنتقدين في الحكومة أو الدولة من سعى بقوة ، أو دُفع بقوة ، لإحياء روح العصبية القبلية ، وإحياء ، قوانينها التي تقوم أصلاً على قاعدة أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً .. وتشجيع أبنائها إلى الرجوع إلى قانون الغاب ، الذي يسعى فيه كل فرد للحصول على مكاسب آنية ، حتى صارت الآنا هدفاً يسعى لتحقيقه كثيرٌ ممن عمل على إحياء قانون القبيلة والعشيرة ، وترك وراء ظهره حتى ما كانت البداوة تحرص عليه من قيم واخلاق ومبادئ وسلوك في هذا الزمن الصعب الذي قدم فيه الإسلام للعالم منذ عهد رسوله ﷺ من الترتيبات والنظم ما أغنت العالم ، فضلاً عما أضافته إلى الحضارات الأخرى خلال تراكمات الزمن مما لا يمكن

إغفاله أو تجاهله ، من تلك القيم التي أدت فيما مضى إلى التمكين ...

لقد آلمني ما نحن فيه من رجوع أو تقهقهر ، تبدو معالم مؤلمة في عودة إلى قانون العشائر .. أو قانون الغاب ، وفي هذا العصر الذي وجد فيه العالم المستحضر حقاً ، ضالتهم في الإسلام ، كهف الحضارات ، وملجأ من لا ملجأ له ..

ضمنت دراستي هذه ثلاث مباحث ، عرضت في الأول منها بعنوان البداوة ومعناها لغة واصطلاحاً ، ورد الأعراب أو البدو في التصدي للإسلام أو الوقوف في وجه الدعاة ، وكيف تعامل الإسلام والمسلمون معهم .

وفي المبحث الثاني ، تحدثت عن الحضارة ، مبينا جوانبها ، المدنية والثقافية ودور الإسلام في النقلة الحضارية السريعة للعرب ، ونشرها في الإسلام .

وفي المبحث الثالث ، عرضت موقف الإسلام من البداوة والحضارة ، وأضفت إليه دور الأعراب ، وعلاقتهم بالبداوة .

ومع أن دراستي هذه جاءت مختصرة ، وحسبما تطلبه نشر البحث في المجلات العلمية إلا أني قد أكدت أن الإسلام دين الجميع ، وقد جاءت مبادئ تجمع ولا تفرق ، وتأخذ عملية التعليم ، تدريجياً بما لا ينفر أمته أو شريحه عنه ، ولكني أقول وأوكد أن المجتمع المتحضر يرفض بقوة التعنصر والرجوع إلى قانون القوة ، العشائرية أو القبلية التي لا زال يثبت بها أنصاف المتعلمين ممن يسعى وراء مصالحه لا وراء أو من أ جل مبادئه.

المبحث الأول

البداوة في اللغة والإصلاح

في اللغة:

الإقامة في البادية ، وتبدىٰ الرجل ، أقام بالبادية ، والبدو من البادية ، والنسبة إليها بدوي[١]، والبدو البادية ، قال تعالى :﴿ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ ﴾[٢] .

وفي الحديث الشرف : عَنْ أَبِي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَالَ قَال رسول الله ﷺ: ((مَن بَدَا جَفَا)) [٣]، بمعنى ، من نزل البادية صار فيه جفاء أهلها[٤]، وهي صفة لغالبهم ، فهم أهل ابل وغنم[٥] ، وحركة دائمة مبعبة في نمط حياتهم ، ولذلك عدَّ يوسف عليه السلام انتقال أبويه وأخوته من البادية إلى الحضر من نعم الله عليهم[٦].

وجاءت كلمة جفا بمعنى ضد البر لما فيه من صفات الخشونة والابتعاد ، والقطيعة المذمومة[٧]، أما كلمة تبادىٰ فجاءت موافقة لمن تشبه بأهل البادية[٨].

والبادية ضد الحاضرة ، وتشمل التسمية كلُّ ما اعتمد ساكنوه في حياتهم على الكلأ ، وطلب مساقط المطر وكثرة التنقل والترحال[٩].

---

(١) الزيات أحمد وآخرون ، المعجم الوسيط ، دار الدعوة(مصر بلا) ، ٤٥/١ .

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٠ .

(٣) البيهقي ابو بكر احمد بن الحسين ت ٤٥٨ هسنن البيهقي دار صادر بيروت بلا ص١٠١ ج١٠سورة يوسف: الآية ١٠٠ .

(٤) الجوهري ، حماد ، معجم الصحاح ، دار المعرفة (بيروت ٢٠٠٥) ، ص٧٨-٧٩ .

(٥) الصابوني ، محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، دار الصابوني(القاهرة بلا) ،٧٣/١٣.

(٦) الطبري محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) ، تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن) ، دار الكتب العلمية (بيروت١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ، ٧٣/١٣ .

(٧) الجوهري ، ص١٧٦ .

(٨) الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر(ت ٦٦٦هـ) ، مختار الصحاح ، دار الرسالة(الكويت ١٩٨٣) ، ص٤٥ .

(٩) المعجم الوسيط : ٤٥/١ .

وفي الاصطلاح :

البدو هم سكان البادية ، ممن لا تؤيهم مساكن ثابتة ، ولا تجمعهم مستقرات دائمة مساكنهم خيامهم ، ووسائطهم في النقل أقدامهم وظهور إبلهم ، وخيلهم فرشهم الأرض وغطاؤهم السماء[١] .

وتقوم حياة البداوة على أساس القبيلة ، التي يشترك أبناؤها في أصل واحد وموطن واحد، مرتبط بمساقط الماء ، والمراعي ومنابت العشب ، فلا حدود ولا علامات تمنع حركتهم في جزيرتهم التي كانت هي حياتهم ، ودنياهم[٢] .

ورابطة هؤلاء الناس هي العصبية للقبيلة بمعناها الضيق ، اذ لا وجود لمعنى العربية أو العروبة أو الوحدة ، في لغتهم ، وإن وجدنا مظاهر ذلك في وفود بعضهم إلى بعض ، وخاصة في مواقف التهنئة أو التعزية .. التي كثيراً ما شجعتها تقاليدهم وأعرافهم في مناسبات محدودة وضيقة[٣].

وهكذا نجد تقاربا بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي، وقد ارتبطت حياة البدو في كثير من مظاهرها بما حولها من مدن وحواضر ، وشهد بعض رجالاتها الأسواق ، وباع واشترى ، واختلط، وتعلم كثيرا من ضروريات الحياة[٤]، ثم كانت الأحلاف عاملا رئيسيا في جمع تلك العشائر أو القبائل المتنافسة المتناحرة ، تحت مشورة ذوي الرأي منهم ، فانضم الضعيف تحت راية القوي ، والذليل إلى العزيز وحالف القليل الكثير ، وان تباعدوا في ديارهم ومراعي مواشيهم ، ، إذا انتشروا فيما بينهم [٥].

لقد كان للحلف قوة سلطان ، أو سلطة قانون ، لفرضة المتحالفون على أنفسهم فتكون لهم على حلفائهم كل الحقوق ، من نصرة الأعداء ورد كيدهم[٦] .

ومن أشهر تلك الأحلاف : حلف المطيبين بمكة ، بين بني عبد مناف ، وبني زهرة وبني تيم ، وبني أسد ، ضد بني عبد الدار وحلفائهم ، وكان يَمِينُهمْ ، بعد غمسهم أيديهم في جفنة مملوءة طيباً ، وحضر النبي ﷺ قبل البعثة حلف الفضول وقد أشاد به ، وقد تحالفت قبائل قريش على الا يجدوا

(١) الشعراوي : ص١٩٨٣ .

(٢) الجاحظ عمر بن بحر ت٢٥٥هـ، الحيوان ، دار التراث العلمي دمشق ١٩٥٥ ج٣/٤.

(٣) ضيف شوقي ، تاريخ الأدب العربي ،دار المعارف مصر ص٥٧.

(٤) الجاحظ: ٣/٤ ؛ ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن (ت ٨٠٨هـ)، (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر) ، دار الكتاب اللبناني، (بيروت ١٩٧٥) ، ١٩٨/١ .

(٥) د. علي جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار الساقي ، دمشق بلا (١٩٨/١)، ١٩/١ .

(٦) الجابري محمد عايد ، تكوين العقل العربي ، مركز الدراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص٩٣ .

بمكة مظلوما الا نصروه وقاموا معه ، حتى ترد عنه مظلمته .. وغيرها[١] .

وكان لهذه القبائل المتحالفة وغير المتحالفة مجلس يضم أهل الرأي فيها ، أطلق عليه فيما بعد دار الندوة ، كان لكل منتسب إلى القبيلة الحق في حضوره والتحدث فيه ، فهو مدرستهم وناديهم ، ومكان سمرهم ، وان لم يكن دائما ، ولا في موعد محدد ، إلا انه بالتأكيد كان يعقد مساء ، كلما حزب أمر ، أو ظهر ما يدعو إلى الاجتماع ، يحاور بعضهم بعضا يشاوره ويناقشه ، ويستمعون فيه إلى ما نظمه شعراؤهم ، أو ذكره خطباؤهم ثم تكون كلمة الفصل بعد ذلك لحكمائهم ، وان كانت قراراتهم غير ملزمة إلا بمقدار ما تحققه من مصالح[٢].

ومع ما ذكره أهل العلم من جفائهم ، وعدم استقرارهم وهو مدعاة عدم تعلمهم ، كثيرا مما أصبح مألوفا ومعروفا في الحواضر ، فإنهم لم يكونوا بمعزلٍ عن الحياة بداية ، إنما هي حياة فرضتها عليهم الطبيعة ، فاعتادوها ، ويكفي للبد وصفاء بيئتهم وسلامة لغتهم ، وقدرتهم على التعلم ، السريع والحفظ بذاكرة قوية وحافظة مجيدة ، متى سنحت لهم فرصة في ذلك ...

نعم ، لقد وقف الأعراب ، والبدو وهم بعيدون عن مكة والمدينة في صدر الإسلام موقف المترقب ، لما سيؤول إليه الأمر بين ﷺ وأصحابه من جهة وبين أهل مكة ، وأحلافهم من جهة أخرى ، وسرعان ما جاءت وفودهم تعلن إسلامهم وطاعتهم ، فدخل الإسلام بعدها جميع العرب في الجزيرة العربية ، وأهل المدر منهم كذلك[٣] وحسن إسلامهم .

لقد جانب ابن خلدون الصواب ، وهو يعد البداوة أصلا[٤] ، ثم ساوى في تعريف البدو بين سكان البادية ، أهل الخيام ، والإبل والشاة ، وبين سكان القرى والعيون والآبار[٥]، ممن سكن الكهوف ، أو الغارات ، أو في مساكن مبنية من الطين أو القصب وغيره ... وشتان بين هؤلاء وهؤلاء ، وان كان هناك تقارب بين الأطراف المذكورة في نمط العيش ، والخشونة ، والاكتفاء بالضروريات[٦] ، إلا أن للبدوي العربي ميزات قد لا نجدها عند النبطي ، أو الإفريقي ، والبربري

(١) البكري أبو عبد الله (ت ٤٨٧ هـ) ، معجم ما استعجم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، بلا ، ٥٣/١ .

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : ١٣/١ .

(٣) المفصل : ٣٨/١ .

(٤) تاريخ ابن خلدون : ١٢١/١ .

(٥) م . ن : ١٢٢/١ .

(٦) المفصل : ٣٨/١ .

وعند الكردي أو التركي ... وغيرهم[١].

لقد بنى ابن خلدون نظريته على أسس منطقية مقبولة إلى حد ما[٢] ، ولكن كيف يقبل منه قوله أن البداوة أصل ، وهي تسبق الحضارة ، والقرآن يؤكد أن الله جل وعلا خلق آدم ، وعلمه الأسماء كلها قبل إنزاله إلى الأرض .. واعده ليكون في الأرض خليفة[٣]، ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[٤] .

وأنا أرى ان الحضارة هي الأصل وان المعرفة أساس قامت عليه الحضارة وكان أغلب معارف الإنسان ، المدنية ، كما قدمنا ، وقبل دخوله الإنسان دور الممارسة والتطبيق في الأرض التي تخوف منها الملائكة وهم يستمعون إلى كلام الباري عز وجل﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾[٥].

أما ما أشار إليها بن خلدون من جهل البدو لكثير من متطلبات أهل المدن من الحاجيات والتحسينيات فذلك صحيح ، لما ذكرنا من اهتمامهم بالضروريات .. ولكن ذلك لا يعني عدم معرفتهم لها ، وهم الذين حفظوا اللغة الفصحى أجيالا عديدة ، وهم الذين خلدوا مآثرهم في نظم شعرائهم الذين كانوا يكتبون قصائدهم بماء الذهب ، ويعلقونها على ظهر الكعبة تقديساً لها[٦] ... لم يكن ابن خلدون وحده متحاملاً على البداوة ، وقد ألبسها ثوب الجفاء والخشونة وأضاف إليها كل ما من شأنه أن يقف بوجه التقدم الحضاري والعمران البشري بل ان كثيراً من أهل العلم ، كان يعد تمسك البدوي ، وأهل القرى الذين هم على شاكلتهم في التمسك بالعصبية القلبية ، والتعصب للعشيرة ، في باب : انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، والنظرة الضيقة إلى الآخرين، كل ذلك وغيره كان وراء تعثر العمل الحضاري[٧]، وعرقلته ، لكنهم لم يقفوا بوجهه يوما ، والدليل على ذلك التطور الكبير الذي حصل لهؤلاء ، حين اتصلوا بالحواضر ، فكان تعلمهم

(١) العصر الجاهلي : تاريخ الأدب العربي : ص٥٧-٥٨ .

(٢) تاريخ ابن خلدون : ١٩٨/١ .

(٣) سورة البقرة: الآية ٣١ .

(٤) سورة البقرة: الآية ٣١ .

(٥) سورة البقرة: الآية ٣٠ .

(٦) ابن هشام ، أبو محمد بن عبد الملك (ت ٢١٨ ه) ، دار الفكر ،(بيروت ، بلا) ، ٧٨/١٢-٧٩ .

(٧) المفصل : ١٢٢/١ .

كما قدمنا سريعاً ، ولذلك ازدهرت الحيرة والانبار ، والحضر وتدمر والأنباط ، وكندة[١]..فضلاً عن المدينة المنورة ومكة ، في أول فرصة سنحت لأولئك البدو في الاستقرار ، وتحسن الظروف الحياة ، وبالعكس ، فان تلك الحواضر كثيراً ما تعرضت للغزو الأجنبي ، فارسي أو رومي أو مغولي أو بربري أوفرنج يفلم يجد أهلها بدٌّ من اللجوء إلى الصحراء ، فان طال عليهم الزمن ، عادوا إلى شظف العيش ، ومنهج البداوة[٢]، ذلك مبلغ جهلهم ، ومعدن اختيارهم للصحراء مظنة عشقهم للحرية ، ونفرتهم من الظلم والعدوان الذي كثيراً ما اقترفه المترفون والمتحضرون بزعمهم .. لتحقيق مكاسب تحافظ على نمط حياة شعوبهم.

(١) عواصم عربية ومراكز حضرية أمها البدو ، وأنشأها العرب حين استقروا .

(٢) تكوين العقل العربي : ص٩٣ .

المبحث الثاني

الحضارة

والحضارة، من الحضر، خلاف البداوة والبدو، والحاضر ضد البادي[١]، والحاضر الحي العظيم، وفلان حاضر بموضع كذا، مقيمٌ به[٢]، ومنه جاء قولهم: الحضارة – بكسر الحاء -: الإقامة في الحضر، ومن قرأها بالفتح كان شاهده قول الشاعر:

ومن تكن الحضارة أعجبته فأي رجال بادية ترانا[٣]

وحيث تكون الإقامة والاستقرار تزدهر الحضارة وتقوم الممالك، وتظهر الحكومات[٤]، لما في المستقرات من بيئة صالحة، لحياة الجماعة، ونمو المجتمع، فتظهر حاجته إلى العمل والإنتاج والكسب، ثم الجمع والادخار، للإنفاق على المصالح الخاصة والعامة، ومنها: الجيش، ورجال الأمن، والتعليم، وأهل المهن الأخرى ثم الطرق والشوارع والمباني وتوفير الماء والدواء، والمدارس .. وغير ذلك[٥].

والعمران من مظاهر الحضارة التي وضع المودودي لمساته الأخيرة على خطوطها العريضة في دائرة التكامل تشمل كل ما للإنسان من فكر وعمل وإرادةوأخلاق وسلوك في حياته الفردية أوالأسرية، وفي المجتمع، سواء كانت اجتماعية أم اقتصادية أم سياسية[٦]. وبذلك جمع بين ركنيها والأساسين، الثقافة والمدنية[٧].

وخلص بعض المفكرين إلى القول بأن الثقافة تعكس صورة مضيئة عن ثمرات الفكر الإنساني

(١) معجم الصحاح: ص٢٤٢.

(٢)ابن فارس ابو الحسن احمد بن فارس، (ت ٣٩٥هـ) معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة (١٣٦٦هـ)، ٦٠/٢.

(٣) تاج اللغة وصحاح العربية: ٤٩٥/٣.

(٤) المفصل: ٢٨٩/٧.

(٥) المفصل: ١٦١/٨.

(٦) مجلة الأمة القطرية: العدد/١٩، ص١.

(٧) جمال أحمد محمد محاضرات في الثقافة الإسلامية: مطبعة المجد السعودية، ١٩٧٨م، ١٤/١٣.

في العلوم والفنون والآداب والأخلاق والقوانين[١]، وهذه جميعها مكتسبة ، يحصل عليهاالإنسان من خلال عملية التعلم والتفقه التي دعا إليهاالإسلام من خلال الأمر بالهجرة إلى المدينة المنورة، أي من البادية إلى المدينة ، لينفي عنهم جفاء الصحراء ، ووحشيتها ، والابتعاد عن حياة البداوة وخشونتها وشغفها ، ولو كانت الهجرة لمجرد الحماية لكانت مضارب بني سعد أولى بالهجرة إليها[٢] وهم أصدقاؤه ومعارفه وفيهم مراضع وملاعب صباه ، لكن العلم ، كان سبباً رئيسياً للهجرة، سواء للحبشة أم للمدينة فضلاً عن البحث الجاد، عن مراكز جديدة وركائز جديدة ، تقدم للإسلام والمسلمين دعماً أي سنددعمٍ[٣].

لقد بنى الإسلام دولته على العلم ، وجعل التعلم مبلغ وسائله ، وعدَّه شرطاً أساسياًفي عملية التغيير بكل معانيه ، وعده ثورة شاملة على واقع البداوة الفاسد المنحرف عن الحق والعدل ، الذي أشار إليه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وهو يحاور النجاشي ، الملك الحبشي ، قائلا : أيها الملك ، كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، يأكل القوي منا الضعيف .. فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ، ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم وحسن الجوار .. والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا ان نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً ...[٤].

وهكذا جمع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بين أخلاق البداوة وأهل الجاهلية مع صفات أهل الحضارة والعلم والمعرفة[٥] ، وشرح قضيته ، بل فضح أمر قريش وعاب آلهتها ، وكان تعبيره صادقاً ، واهتمامه بإعلان مبادئ الإسلام ، ومطالبهأكثر صدقاً ، فاقنع الملك بحسن منطقه وجزالة ألفاظه ، وجمال أسلوبه ، وقدم للرأي العام كلاما أوضح منه عدالة قضية المسلمين ، كما

(١) محاضرات في الثقافة الإسلامية ، ١٤-١٥ .

(٢) الفراهيدي الخليل ابن أحمد (ت١٧٥هـ)، العين ، المطبعة بيروت ، ١٩٣٥م ، ٣٩٥/١.

(٣) الشريف أحمد إبراهيم، دراسات في الحضارة الإسلامية ، دار الفكر العربي (بيروت١٩٨١)، ص١٥ ؛ كمال حسن ، حضارة المستقبل ، دار المعرفة(دمشق بلا) ، ص١٧ .

(٤) الصلابي ، علي محمد ، السيرة النبوية ، دار المعرفة(بيروت١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م) ، ص١٩٦-١٩٧ .

(٥) سبع ، توفيق محمد ، أضواء على الهجرة ، المطابع الأميرية (مصر ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)، ص٤٢٧ .

هو معروف اليوم في عالم العمل السياسي الذي تقوم به كثير من الحركات العالية أو المنظمات المجتمعية الدولية لشرح قضاياها وكسب الرأي العام إلى جوارها[١] .

لقد ذكر لنا القرآن الكريم نماذج من الحضارات التي سادت ثم بادت بموجب قوانين كونية وضعها جل وعلا للحفاظ على هذه الحضارات ، ومنها العدل والإصلاح ، وضده الفساد أوالإفسادومساربه وطرقه متعددة ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ ﴾[٢] .

وحكى لنا التاريخ نماذج أخرى قديمة وحديثة ، فإذا ما وقع على هذه الأمم المنحرفة عن سنن الله عقاب ، استبدلها بأمة غيرها ، قد لا تكون مثلها ، عادت إلى الانحراف عن سير الحضارات .. وموجباتها نالها ، ما نال غيرها[٣] .. ممن سبق وفي الماضي القريب نماذج من الحكومات والحكام ممن تمشدق بالتحضر وغنى للحضارة ، ولكن لم يتعلم ولم يأخذ درساً أو دروساً ممن مضوا ، بل كان تفكيره محدوداً ، ونظرته إلى الحياة لا تعدو الأنا ، لذلك سخر الاشياء والمبادئ والقيم .. لخدمة الأشخاص ، وفي هذا منطق بداوة ، لا يهم مجتمعهم إلا ما تصلح به القبيلة أو إلاَّ ما يصلح الملأ في القبيلة ، وذلك منطق التقهقر كما يقول الدكتور الجابري[٤] .

نقلاً عن الجاحظ ، وهو يؤبن مجتمع عصره الذي أعادللعصبية القبلية وجودها ، من خلال الخلفاء أو وزرائهم الذين سعوا بقوة لتقديم، قبيلة دون أخرى، فاثأروا تلك القبائل على بعضها وخاصة في خراسان التي استوطنهاالعرب بكثرة ، وكانت المدن تزدحم بتلك القبائل حتى غرقت كل سكة بالقبيلة التي تسكنها ، بل نجد القادة قد شحنوا جندهم من قبائلهم دون غيرهم ، وهذا ما أودي بالأمويين ، أولاً ، وتلاه العباسيون .. بعدهم[٥].

لقد فشلت الدولة الأموية في إيجاد تيار حضاري ، لأنها لم تستوعبه حينما امتدت بها الفتوحات، ولم تمتد بالدعوة ، بل فقدت الدعوة حتى بالداخل وهي المحرك الأساسي للبرنامج

(١) الغضبان منير ، التربية القيادية ، دار الوفاء (مصر ١٤١٨هـ/١٩٩٨م) ، ٣٣٣/١ .

(٢) سورة الفجر: الآيات ٦ – ١٤ .

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : ٦٦/١ .

(٤) تكوين العقل العربي : ص٩٤ .

(٥) تاريخ الأمم والملوك ، دار المعارف ، مصر بلا .

الحضاري الذي انتهى تماماً في أواخر العصر الأموي اذ ولي الخلافة أمثال الوليد بن يزيد ، ويزيد بن الوليد .. الذي لم يستطيعوا تقديم مشروع حضاري يجدد حيوية الدولة ويرسم أهدافها ويدفعها بقوة نحوها[١].

(١) عويس عبدالله الحليم ، بنو اميهبين السقوط والانتحار ، دار الدعوة ، مصر ، بلا ، ص٨٤.

المبحث الثالث

الإسلام

في اللغة الإسلام ، الإذعان والانتماء ، وضده التمرد والخروج[١] وهو التسليم قال تعالى : ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾[٢]، والإسلام والسلم بمعنى المصالحة والاستسلام[٣].

وفي الاصطلاح : الامتثال والطاعة والانقياد لما جاء به النبي ﷺ ، وهو الدين الذي شرح مفرداته حديث جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ : ((الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَأَنْ لاَإِلَهَ إِلاَّاللَّه،وَأَنَّ مُحَمَّدًارَسُولُاللَّهِ وَتُقِيمَالصَّلاَةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاة وَتَصُوم رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِاسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ...)) [٤] ، وهناك تعريفات أخرى لا تتعدى بعض المعاني والصفات التي يحملها الإسلام منها : دين الحق ،ودين الفطرة ودين إبراهيم عليه السلام ، وملته والدين القيِّم ، ودين القيم والأخلاق ودين الله[٥] وغيرها .

لقد جاء الإسلام إلى المجتمع العربي الذي تمكنت فيه روح الأنا ، وسادته الفردية إلى ما اشرنا إليه في حدود القبيلة وما يحركها من عصية تدور في حدود حياة البدوي الذي أصبحت القبيلة أوسع حدود نظرته السياسية ، ويسعى من خلالها إلى تحقيق مكاسب سريعة ، أو المحافظة على ما اكتسب[٦] . ولقد وقف هذا المجتمع بوجه الدعوة الإسلامية ، يوجه لمعتنقيها كل أنواعالصد والمقاومة الا قليلا ممن انعم الله عليه بالذكاء والفطنة .

في هذا المجتمع المتخلف حضاريا ظهر الإسلام ، فجاء بعقيدة دين ذات تصور كامل شامل للحياة والكون والإنسان ، ورسالة إنسانية تتناول مشكلات الإنسان في ميدان السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق- فقدم لها حلولا في غاية الدقة والشمول حمل لواءها النبي ﷺ، الذي وصفه

(١) معجم الصحاح : ص٥٠٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ٢٠٨ .

(٣) زيدان عبد الكريم ، الوجيز في أصول الفقه ، مطبعة سلمان الاعظمي (بغداد/١٩٦٧)، ص١٢٣، ٣٠ .

(٤) مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت ٢٦١هـ) ، دار صادر(بيروت بلا) ، ٢٨/١ .

(٥) أصول الدعوة ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ٢٠٠٥م ، ص٨٧ .

(٦) كنيثوموركان ، الإسلام الصراط المستقيم ، مؤسسة فرانكلين للطباعة (بغداد ١٩٦٣)، ص١٨٥؛ نور الدين .

القرآن الكريم بقوله :﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾[١]، وكان الإسلام أول نظام عالمي حطم التعصب للقبيلة وللجنس أو حتى للدين فحلَّ محل كل ذلك سماحة مطلقة وحرية في العقيدة ، وحرية في العبادة ، ودعوة إلى الإخاء الإنساني ، ووضع بذلك مقياسا للأفضلية ثابتا يقوم على أساس من تقوى الله جل وعلا والعمل الصالح في الحياة الدنيا[٢] ، فاخرج من دائرة التصور الصحيح أسساً كانت تدور حولها المفاخر ، منها اللون والجنس والعنصر ، التي عانت الأمم من ويلات معتنقيها الكثير من الظلم والبغي والعدوان والتعسف على مدار الزمان[٣] ..

لقد جاء الإسلام بمبادئ عامة ترسم الخطوط الرئيسية والأساسية للقواعد التفصيلية التي تركت لمقتضيات التطور الحضاري من حيث الزمان والمكان مع بقاء المجال مفتوحاً للعقل الإنساني في أداء رسالته الحضارية في الحدود المقررة له وبما ملك من طاقة وقدرة واجتهاد .

وفي عودة إلى حياة البداوة ، التي يحاول بعض أنصاف المتعلمين إحياءها والعمل وفق قوانينها في هذا الزمن الصعب ، الذي لا تنفع معه . إلاَّ الوحدة والاتحاد والاستكثار في العدد والعدة ، أما العودة إلى الفردية المقيتة ، وحكم الأسرات ودويلات المدن تحت ذرائع شتى ابتلي بها المسلمون ، من أمثال الفدرالية والأقاليم وغيرها مما يجر إليه المسلمون اليوم فذلك يأباها لإسلام ، وترفضه الحضارة في كل أدوارها التي عرفنا كثيرا من فصولها سواء في الشرق أو الغرب ، ويكفينا رداً على مطالب هؤلاء ، ما يفعله أعداؤنا من الاجتماع والاتحاد والتعاون والأحلاف أفلا يكفينا ما نحن فيه من فرقة واختلاف وتجزئة ؟ أليس الأجدربنا لم شملنا ، وتوحيد صفوفنا ، خير من تجزئة المجزأ وتقسيم المقسم تحقيقا لمؤامرات تحاك ضدنا ونحن نروح ونغدوولیس بيننا من يسأل نفسه أوأهله((أليس فيكم رجل رشيد))[٤].

ويبقى دعاة التجزئة ، وحملة رايات الأعداء من المنتفعين المأجورين الذين لم يستطيعوا ان يجدوا لهم ما يصلح حالهم ، فلجأوا يبحثون في فتات موائد أسيادهم ما يسدون به رمقهم مقابل ما اتفقوا عليه من تخريب بلدهم واستئساد على سكانه وأهله .. الذين رفضوا حياة الذل والعبودية إلا لله تعالى .. وهو ولي الصالحين . والسلام على من اتبع الهدى .

(١) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

(٢) البوطي ، سعيد رمضان ، معالم في الطريق ، دار صادر دمشق ، ١٩٥٥م ، ص٢٦ .

(٣) المودودي أبو الأعلى ، لدين القيم ، دار الندوة(الهند ١٩٥٤) ، ص٨ و ٢٤ .

(٤) سورة هود ٧٨ .

موقف القرآن الكريم من الأعراب:

الأعراب ، سكان البادية ، من العرب وغيرهم[١] .

وردت كلمة الأعراب ، هذه اللفظة ، عشر مرات في القرآن الكريم ، ويشكل هذا العدد موقفاً صريحاً وواضحاً وواسعاً للقرآن الكريم ، وعلى المتوسع الغوص في الحقائق القرآنية التالية من خلال التفسير الحقائق التاريخية :

قال تعالى :

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ... ﴾[٢].

﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ... ﴾[٣] .

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ... ﴾[٤] .

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ... ﴾[٥] .

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ... ﴾[٦] .

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ ... ﴾[٧] .

﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ ... ﴾[٨] .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ... ﴾[٩] .

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ... ﴾[١٠] .

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ... ﴾[١١] .

---

(١) الجوهري : معجم الصحاح ، ص٦٨٢ .

(٢) سورة التوبة: الآية ٩٠ .

(٣) سورة التوبة: الآية ٩٧ .

(٤) سورة التوبة: الآية ٩٨ .

(٥) سورة التوبة: الآية ٩٩ .

(٦) سورة التوبة: الآية١٠١ .

(٧) سورة التوبة: الآية١٢٠ .

(٨) سورة الأحزاب: الآية ٢٠ .

(٩) سورة الفتح: الآية ١١ .

(١٠) سورة الفتح: الآية ١٦ .

(١١) سورة الحجرات: الآية ١٤ .

خير من يعكس الحقائق التاريخية ثلاثة مواقف من أرض الواقع وكما يأتي:

عدّ القرآن الكريم دخول الأعراب في الإسلام ، استسلاما وعجزا عن حمل السيف ومواجهة جنود الإسلام ، وهي تكتسح أصنامهم وأوثانهم وعقائدهم الفاسدة وأخلاقهم الرديئة ، في مكة والمدينة والطائف وسائر بلاد العرب ، وعليه فان دخولهم في الإسلام كان خوفاً وطمعاً ، ولم يؤمنوا حقيقة ، إنما قالوها بألسنتهم دون قلوبهم ، وشتان بين المؤمن حقيقة وبين من ادعى الإيمان والإسلام ، ولم ينتم إليه ، والصادقون ، هم الذين آمنوا بالله ورسوله ولم يرتابوا أو يترددوا ، أو يتأخروا ، كما فعل أبو بكر الصديق **رضي الله عنه** ، وقدموا أنفسهم في سبيل الله تعالى قبل أموالهم التي بذلوها رخيصة مع رسول الله ﷺ .

أشارت هذه الآيات التي ذكرت الأعراب إلى ثلاثة مواقف للأعراب ، فضحتهم بها وعرت واقعهم وكشفت مخازيهم ، بما يؤكد جفاءهم وغلظتهم ، وتأخر عمليته التعلم أو الفهم والاستيعاب عندهم مما أثر عمليه استجابتهم للتحول الإيماني الجديد الذي أعلنوا فيه إسلامهم .

الموقف الأول :

في غزوة الأحزاب سنة ٥هـ في شهر شوال أو ذي القعدة منها[١]، والتي ألب فيها الأعراب واليهود في المدينة وما حولها مشركي مكة ، وتحالفوا معهم مستعينين بكيد المنافقين في المدينة، لاستئصال المسلمين ، وقد سبق الإشارة إلى موقف أهل مكة من المسلمين ، واعتمادهم في مشروع الهداية على نصيحة اليهود ، إذا كانوا مستشارين لهم كما جاء في القرآن الكريم ، قال تعالى :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾[٢] .

لقد كانت غزوة الأحزاب من الغزوات الهامة التي خاضها الرسول ﷺ مع أعدائه وقد حقق فيها فضلا عن الانتصار وانهزام أعداء الله وتفرقهم ، تغير الموقف لصالح المسلمين فانقلبوا

(١) الواقدي ، محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ) ، المغازي ، مطبعة سردسن المانيا ٣٧ج٢/٤٤٠ ؛ ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ) ، طبقات ابن سعد الكبرى ، دار صادر(بيروت ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م) ، ٢/٦٥ ؛ مهدي رزق الله احمد ، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الرياض١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ، ص٤٣ ، وقال ابن كثير في سنة ٤هـ؛ ابن كثير ، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ) البداية والنهاية ، ط٤ دار الريان (مصر١٤٨هـ/١٩٩٠م) ، ص٤/١٠٥ ، وجزم ابن القيم : انها سنة ٥هـ وهو الأقرب للصواب ، ابن القيم الجوزية ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٩ ج٢/٢٨٨ .

(٢) سورة النساء:الآية ٥١ .

من موقف الدفاع إلى موقف الهجوم ، قال ﷺ بعد ان غادر الأعداء الساحة حِينَ أَجْلَى الأَحْزَابُ ((الآن نغزوهم ،وَلاَ يَغْزُونَنَا نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ))[١]، ثم كشف القرآن الكريم عن حقيقة بعض أولئك الأعراب ، ومنهم بنو لحيان وأعراب نجد ، وعكل وعرينة ، ثم تفرغ لهم بعد الأحزاب ، بغزوات تأديبية[٢] .

لقد كان الأعراب ، والمنافقون منهم خاصة ، يمثلون الوجه القبيح لمن ملأ الشيطان قلوبهم بالخوف والهلع[٣]والجبن من لقاء العدو ، مع ما كانوا يضمرونه للمؤمنين من الحقد والكراهية ، وكانوا لِفرقِهم ، يتمنون لو كانوا خارج المدينة أو في البادية ، ولم يكونوا شاهدين على ما يجري ، ولو من بعد[٤]، ومع سوء موقفهم هذا ، وسوء حالهم كانوا يسألون من يمر عليهم عن الموقف في ساحة المواجهة ، ويسألون ؟! هل هلك المسلمون ، وهل قتل فلان ؟! هل بقي منهم أحد ؟ وهم يرتجفون ، ضانين بأنفسهم حتى بالمشاهدة ولو عن بعد [٥]، مثل هؤلاء الناس لا فائدة ولا جدوى من إضافة أعدادهم أو أسمائهم إلى قائمة المسلمين .. بل هم أشد ضررا من إخوانهم المشركين والكفار ، من أهل مكة واليهود [٦] .

الموقف الثاني :

هو صلح الحديبية في ذي القعدة سنة ٦هـ[٧]، وكان عدد المسلمين في ذلك اليوم ألفاً وأربعمائة قال فيهم ﷺ: ((أَنْتُمُ الْيَوْمَ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ)) [٨]، ثم بشرهم بالجنة فقال : ((لاَيَدْخُلُ النَّارَ إِنْشَاءَ

(١) البخاري : محمد بن اسماعيل ، ت(٢٥٦هـ) دار الفكر بيروت ١٩٩١م ج ١٤١/٥ ، رقم الحديث ٤١١٠ .

(٢) الواقدي : المغازي ، ٥٦٨/٢ ، وابن سعد : الطبقات الكبرى ، ٩٢/٣ . السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية : ص٤٦٨ ، ٤٧٨ .

(٣) القرطبي ، أبو عبد الله ، تفسير القرطبي ، دار إحياء التراث العربي (بيروت ١٩٦٢) ، ١٥٤/١٤ .

(٤) ابن الجوزي ، ابو الفرج عبد الرحمن (ت ٥٩٧هـ) ، زاد المسير في علم التفسير، الكتب الإسلامي (جدة ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م) ، ٣٦٦/٦ .

(٥) الهيثمي ، نور الدين ، علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧ه) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ٦/ ١٣١ .

(٦) الصلابي ، السيرة النبوية ، ص ٦٠٠ وما بعدها .

(٧) صالح بن حميد ، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ، دار الوسيلة(الرياض ١٤١٨هـ) ، ٣٣٤/١ .

(٨) صحيح مسلم : ٢٥/٦ .

اللَّهُ من أَصْحَاب الشَّجَرَة أَحَد الذين بايعوا تحتها))[١]، وكيف يعذبهم جل وعلا وقد أعلن رضي الله عنهم ورضوا عنه[٢].

لقد أشارت سورة الفتح على صلح الحديبية ، وما جرى فيه من بيعة الرضوان التي فضحت هؤلاء الأعراب[٣] ، الذين حرموا مما تلا الحديبية من مغانم في خيبر حرم منها هؤلاء ، وهم الحريصون على الغنائم والمكاسب السرية ، المتواطئون عن الأعمال الجادة ، متعللين بمثل قولهم ﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾[٤] فكان العقاب من جنس العمل ، حرمان من فضل الغزو ، وحرمان من الغنائم.

الموقف الثالث :

في غزوة تبوك ، في شهر رجب سنة ٩هـ، التي جاء أصل التسمية فيها نسبة إلى عين تبوك التي انتهى إليها الجيش الإسلامي[٥] ، ولها أسماء أخرى ، منها غزوة العسرة ، والغزوة الفاضحة[٦] . التي كشفت موقف الأعراب، والمنافقين ، وقد ذكرت الآيات أعلاه، استئذان بعضهم وتخلف آخرين وما ذكروه من اعتذار، تدور في ميدان المشقة والسفر البعيد، والحر، وكانوا يحلفون كذبا ، انهم لو كانوا يستطيعون الخروج ما تخلفوا متمسكين بحرصهم على العيال .. وغير ذلك . ومع ما كشفه جل وعلا من أمر المنافقين ، فقد عاتب بعض المتخلفين من المسلمين من أهل المدينة وسكان البادية واخبرهم ان كل ما كان يتعرض له الغزاة مع الرسول ﷺ من تعب وجوع وأذى تعد أعمالا صالحا تصب في ميزان حسناتهم ، أما وقد قعدوا فقد حرموا منها[٧] .

(١) النووي يحي بن شرف ت(٦٧٦هـ) شرح النووي ، على صحيح مسلم ، المطبعة المصرية القاهرة ١٩٢٩م : ١٦٩/٧ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٠٠ .

(٣) اذ امتنع الجد بن قيس عن البيعة ، بيعة الرضوان ، وهو واحد فقط ، الا ان موقفه ذكر هنا السيرة النبوية لإبن هشام ، ١٤٢/١ .

(٤) سورة الفتح : الآية ١١ .

(٥) العسقلاني ، احمد بن حجر (ت ٨٥٢هـ) ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، دار المعرفة (بيروت بلا) ، ٢٣٧/١٦ .

(٦) تفسير الطبري : ٥٤٠/١٤-٥٤٢ .

(٧) الرازي فخر الدين محمد بن عمر(ت ٦٠٦هـ) ، تفسير الرازي (التفسير الكبير) ، دار إحياء التراث العربي (بيروت بلا) ، ٢٢٥/١٦ ؛ الآلوسي ، محمود الآلوسي ، تفسير الآلوسي (روح المعاني في تفسير القرآن والعظيم والسبع المثاني) ، المطبعة العثمانية(الهند بلا)، المعاني ، ٤٧/١١-٤٨ .

لقد ذكر أهل التفسير ، ان قوله تعالى :﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ... ﴾[١]نزلت في أعراب ممن حول المدينة من أسد وغطفان الذين تحالفوا مع المشركين واليهود مقابل مكاسب مادية[٢]، ولهذا جاء قوله تعالى :﴿ وَمِنْ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ... ﴾[٣] بعدها ، لئلا يكون هذا الحكم مطلقا ، فالناس متفاوتون في الفهم والاستيعاب ، ومختلفون في التصور والتعلم ، وهم وان شملتهم تسمية الأعراب ، وشاركوهم في البيئة والمجتمع الا انهم ليسوا سواء[٤]. فقد اسلم العرب جميعا ، وحسن إسلام كثير منهم بل ودخل الإيمان قلوبهم وغير سلوكهم، ويبقى أحاد الناس ، من أمثال عبد الله بن أبي بن سلول ، والجد بن قيس ومتعب بن بشير والجلاس بن سويد وأبي عامر الراهب ، نماذج مرفوضة في جميع المجتمعات الإسلامية ، مثلهم في ذلك مثل أبير غال ومن كان على شاكلته في كل مكان وزمان .

موقف الإسلام من الحضارة :

لقد عدّ الإسلام الإنسان كأناً حضارياً منذ خلقه ، وأعده عز وجل لوظيفة الخلافة في الأرض، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[٥] .

وقد اقترنت هذه الخلافة بالعلم اللدني أولاً ، ثم جاء الإسلام بحضارة في مجتمع اشتهر بأنه مجتمع أمي ، وفي هذا الصدد قال ﷺ : ((نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب)) [٦] ، ومع ذلك كان أول ما أمر به ﷺ القراءة والكتابة ، قال تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾[٧] .

ومن هنا يمكن القول بأن الإسلام كان حداً فاصلاً في مجتمعه بين الحضارة والبداوة ، بل أن النبي ﷺ نهى عن التبدي ((من بدا جفا)) [٨] .

(١) سورة التوبة: الآية ٩٧ .

(٢) البيضاوي ، ناصر الدين البيضاوي ، تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، دار الفكر (بيروت١٤٠٢هـ/١٩٨٢م) ، ص٢٣٠ .

(٣) سورة التوبة: الآية ٩٩ .

(٤)زاد الميسر في علم التفسير ، ابن الجوزي ، ٤٩١/٣ .

(٥) سورة البقرة : من الآية ٣٠ .

(٦) صحيح مسلم : ٢/ ٧٦١ .

(٧) سورة العلق : الآية ١.

(٨) سنن الترمذي ، ٤/ ٢٨١.

وتبقى بُعد الحضارة الإسلامية معجزة كأعجاز القرآن ، والأعجاز ذلك الجيل الذي نهض بالأمة الأمية إلى مصافي الدول الأرقي في هذا الأيام ، ونظرةٌ سريعة إلى كتاب الكتاني [١]، حكومة الرسول ﷺ تكفينا لتأكيد ما نحن بصدده من أن الإسلام دين الحضارة وبغيره فلا حضارة ولا تقدم ، ولا عدل ولا خير .

(١) الكتاني ، محمد عبد الحي الكتاني ، (ت١٩٦٢ م) ، التراتيب الإدارية ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١م .

الخاتمة

يرشدنا التاريخ في حركته الدائمة إلى ان معالم الحضارة تبدو واضحة في صفاء العقيدة ، ووضوح المنهج وتحكيم شرع الله في الدولة ، ووجود القيادة الربانية التي تنظر بنور الله وقدرتها في التعامل مع سنة الله في تربية الأمم ، وبناء الدولة وسقوطها .. ومعرفة علل المجتمعات وأطوار الأمم ، وأسرار التاريخ ومخططات الأعداء .. وإعطاء كل عامل حقه الطبيعي في التعامل معه ، فقضايا فقه النهوض والمشاريع النهضوية البعيدة المدى متداخلة متشابكةلا يستطيع استيعابها إلا من فقه كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ وارتبط بفقه الراشدين رضي الله عنهم، يعلم معالمه وخصائصه وأسباب وجوده وعوامل زواله مستفيدا من التاريخ الإسلامي وتجارب النهوض ، وعندئذ يفهم ويعلم ان هذه الأمة ما فقدت الصدارة الا يوم أحيت العصبية القبلية ، وعادت إلى أخلاق الجاهلية ، وقوانين العشائر ، وإن الأمة ما فقدت كيانها وهي وفية لربها ودينها وبينها ﷺ.

ان الهزائم العسكرية عرض يزول ، أما الهزائم الحضارية فجرح عميق والثقافة الصحيحة تبني الإنسان المسلم، والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم والدولة المسلمة على قواعدها المأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدى الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ومن سار على نهجهم، وعبقرية البناء الحضاري الصحيح هي التي أبقت صرح الإسلام إلى يومنا هذا بعد توفيق الله وحفظه .

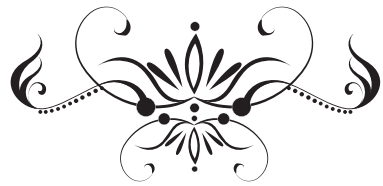

المصادر المراجع

القرآن الكريم.

ت	الكتاب	اسم المؤلف	الدار وسنة الطبع
	الإسلام الصراط المستقيم	كنيثوموركان	مؤسسة فرانكلين للطباعة(بغداد ١٩٦٣)
	أصول الدعوة	د. عبد الكريم زيدان	مؤسسة الرسالة (بيروت١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)
	أضواء على الهجرة	توفيق محمد السبع	المطابع الأميرية(مصر ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م)
	البداية والنهاية	ابن كثير	ط٤ دار الريان(مصر ١٤٨هـ/١٩٩٠م)
	بنوا أمية من السقوط إلى الانتحار	عبد الله عويس	دار الدعوة(مصر بلا)
	تاج اللغة وصحاح العربية	تحقيق أحمد عبد الغفور	دار العلم(بيروت ١٩٨٧)
	تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر)	أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون(ت ٨٠٨هـ)	دار الكتاب اللبناني(بيروت ١٩٧٥)
	تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي	شوقي ضيف	دار المعارف ، مصر

تاريخ والملوك	الطبري ، محمد بن جرير(ت ٣١٠هـ)	دار المعارف(مصر بلا)
التربية القيادية	منير الغضبان	دار الوفاء(مصر ١٤١٨هـ/١٩٩٨م).
التراتيب الإدارية	الكتاني ، محمد عبد الحي الكتاني ، ت١٩٦٢ م) ،	دار احياء التراث العربي ، بيروت ، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١م
تفسير الآلوسي (روح المعاني في تفسير القرآن والعظيم والسبع المثاني)	محمود الآلوسي	المطبعة العثمانية(الهند بلا)
تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)	ناصر الدين البيضاوي	دار الفكر (بيروت١٤٠٢هـ/١٩٨٢م)
تفسير الرازي (التفسير الكبير)	محمد بن عمر بن حسين (ت ٦٠٦ هـ)	دار إحياء التراث العربي (بيروت بلا)
تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)	محمد بن جرير الطبري(ت ٣١٠هـ)	دار الكتب العلمية (بيروت١٤١٢هـ/١٩٩٢م)
تفسير القرطبي	أبو عبد الله	دار إحياء التراث العربي (بيروت١٩٦٢)
زاد الميسر في علم التفسير	ابن الجوزي ، ابو الفرج عبد الرحمن (٥٩٧هـ)،	المكتب الاسلامي ، جدة ، ٤٩١/٣
تكوين العقل العربي	محمد العابد الجابري	مركز الدراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٩٦ ، ص٩٣ .

الجيش في العصر العباسي	محمد عبد الحفيظ	دار مجدلاوي (عمّان١٤٢٠هـ/٢٠٠م)
حضارة المستقبل	حسن كمال	دار المعرفة (دمشق بلا)
الحيوان للجاحظ	أبو عثمان عمر بن بحر (ت ٢٥٥هـ)	دار التراث العربي (مصر بلا)
دراسات في الحضارة الإسلامية	أحمد إبراهيم الشريف	دار الفكر العربي (بيروت ١٩٨١)
الدين القيم	أبو الأعلى المودودي	دار الندوة (الهند ١٩٥٤)
زاد المسير في علم التفسير	ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)	الكتبالإسلامي(جدة ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م)
زاد المعاني في هدي خبر العباد	ابن القيم	مؤسسة الرسالة(بيروت ١٣٩٩هـ/
سنن الترمذي ، الجامع الصحيح	محمد بن عيسى بن سورة(ت ٢٧٩هـ) ، تحقيق ، احمد محمد شاكر	مطبعة المصطفى البابي الحلبي (القاهرة ١٩٣٧)
السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية	مهدي رزق الله احمد	مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات (الرياض١٤١٢هـ/١٩٩٢م)
السيرة النبوية	أبو محمد بن عبد الملك بن هشام(ت ٢١٨هـ)	دار الفكر (بيروت بلا)
السيرة النبوية	الدكتور على محمد الصلابي	دار المعرفة (بيروت١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)

صحيح البخاري	محمد بن إسماعيل البخاري(ت ٢٥٦هـ)	دار الفكر (بيروت ١٤١١هـ/١٩٩١م)
صحيح مسلم	مسلم بن الحجاج النيسابوري(ت ٢٦١هـ)	دار صادر (بيروت بلا)
صفوة التفاسير	الصابوني ، محمد علي الصابوني	دار الصابوني(القاهرة بلا)
طبقات ابن سعد الكبرى	محمد بن سعد بن منيع الزهري(ت ٢٣٠هـ)	دار صادر (بيروت ١٣٧٦هـأ/١٩٥٧م)
فتح الباري شرح صحيح البخاري	احمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)	دار المعرفة (بيروت بلا)
مجلة الأمة القطرية ع/١٩ ، ص١		
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	الهيثمي ، نور الدين ، علي بن أبي بكر (ت ٨٠٧ه)	دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٨٢
محاضرات في الثقافة الإسلامية	احمد محمد جمال	مطبعة المجد(السعودية ١٩٧٨)
مختار الصحاح	الرازي ، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٦٦٦هـ)	دار الرسالة(الكويت ١٩٨٣)
معالم في الطريق	د. محمد سعيد رمضان البوطي	دار صادر(دمشق ١٩٥٥)

معجم البلدان	ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)	دار صادر (بيروت ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)
معجم الصحاح	الجوهري ، حماد	دار المعرفة(بيروت ٢٠٠٥)
المعجم الوسيط	احمد الزيات وآخرون	دار الدعوة(مصر بلا)
معجم ما استعجم	البكري	
معجم مقاييس اللغة	ابن فارس ، تحقيق عبد السلام الهارون	(القاهرة ١٣٦٦هـ)
معجم ما استعجم ،	البكري أبو عبد الله (ت ١٠٩٤ هـ)	موسوعة الرسالة ، بيروت ، بلا ، ٥٣/١ .
المغازي	الواقدي محمد بن عمر(ت ٢٠٧هـ)	عالم الكتب (بيروت ١٤٠٤هـ/١٤١٨م)
المفصل في تاريخ قبل الإسلام	جواد علي	دار الساقي(دمشق بلا)
نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم	صالح بن حميد	دار الوسيلة(الرياض ١٤١٨هـ)
الوجيز في أصول الفقه	د. عبد الكريم زيدان	مطبعة سلمان الاعظمي (بغداد/١٩٦٧)
العين	الفراهيدي أحمد الفراهيدي	المطبعة بيروت ، ١٩٣٥م ، ٣٩٥/١ .